محمد الزعفرانى

ظل رفعت السعيد يراسلنى برسائل على ورق البافرة موجها الحديث إلى «عزيزتى سونيا» وبرغم دهشتى لهذا الاختيار، إلا أن حسن المصيلحى قائد البوليس السياسى الشهير قد وقف مرتبكا أمام المجلس العسكرى العالى عندما أتى ذكر واحدة من هذه الرسائل ضبطت مع أحد المتهمين..

الفريق هلال سأل من هى سونيا؟ ثم فين سونيا؟ فقال المصيلحى فشلنا فى العثور عليها يا أفندم.

«محمد الزعفرانى - فى حواره معى»

عندما التقيت محمد الزعفرانى كنت قد خرجت من سجن طويل منذ يوم واحد فقط إذ اصطحبنى محمد حجازى فى جولة على رفاق كان من المفترض أن أتعرف عليهم وأن أتعامل معهم، مررنا على محل شحاتة النشار فى شارع السد، ثم دار الغد فى شارع شريف حيث التقيت إبراهيم عبدالحليم، ثم إلى شارع الأزهر حيث عمارة الأمير طلال صعدنا دورا واحدا لنجد مكتبا صغيرا مليئا بالعديد من البالات ورجل مبتسم دوما وزوجة شديدة النشاط حتى يخيل إليك أنها هى التى تدير كل شىء، الرجل هو محمد الزعفرانى، هو والمكان يوحيان لك أنك أمام تاجر نصف ميسور والزوجة هى كريمة أو كما كانوا ينادونها «أم أحمد»، جلسنا، شربنا القهوة، أتى العديد من الزبائن، محمد يعقد الصفقات بسرعة ويسر وابتسامة وكريمة تنجز كل شىء، وغادرتهما، ولكننى عدت بعد عدة أيام فقط، ففى صباح أول يناير المبكر كنت على موعد فى منزل مبارك عبده فضل لأحضر أول اجتماع تنظيمى لى، هو اجتماع اللجنة المركزية الذى صدر قرار بتصعيدى لها قبل خروجى من السجن، وفى البيت خرجت الزوجة النوبية وابنتها ماجدة بين أقدامها الاثنتين تبكيان، الزوجة أشارت بيديها امشى بسرعة قبضوا على مبارك، ومشيت، تمشيت على

قدمى حتى دار الفكر وفى المدخل استقبلنى بواب نوبى سألنى متجهما: على فين؟ قلت دار الفكر: فقال مشيرا بيديه إمشى البوليس فوق مستنى أى حد ييجى، ساعتها أدركت خطورة الأمر، تمشيت حتى شارع السد لأجد الأب حزينا وقال امشى شحاتة اتمسك، وأحسست أننى فى قفص أشد قسوة من الزنزانة.. ولم يبق سوى محمد الزعفرانى يكون كهمزة وصل مع الحزب،ولست أدرى لماذا كنت متعجلا لإيجاد همزة الوصل هذه، تمشيت إلى ٩٠ شارع الأزهر وهناك كانت كريمة مبتسمة ورحبت بى بحرارة.. فلم تكن تعلم شيئا، قلت لها، فقالت ننتظر محمد، وتوالت المعلومات عن عديد جرى القبض عليهم.

وحضر محمد، وبدأنا حوارا تركز حولى: ماذا أفعل؟ هل أعود للبيت حيث نظام المراقبة الليلية من الغروب حتى الفجر وحيث الصول الذى يصرخ عاليا ليجبرنى على تخفيض صوته برشوة يومية «فين المراقب فلان» أم أتحدى ذلك وأترك أبى وأمى وأخوتى الذين تجمعوا كى يستقبلونى خارجا من السجن؟ ترددت، لكن محمد كان يستحثنى ويلح الحزب قبض على كثير من كوادره ونحن بحاجة إليك، المهم انتصر محمد، وبدأ الحوار أين سأعيش حال هروبى، كريمة اقترحت منزل عائلتها فى أبى زعبل، والمكان ملائم جدا لكنه بعيد والانتقال اليومى منه وإليه شديد الخطر، وأخيرا تقرر أن أقضى أياما فى بيتهم فى شارع طلعة الرفاعى بالقلعة، ومنذ الليلة الأولى بدأنا سلسلة اجتماعات محدودة لاتعرف على من بقى من القادة.. وكانت المعلومات مخيفة فالضربة البوليسة أوسع مما توقعنا، والغريب أنها تركزت على رفاق حدتو أكثر من المنظمات الأخرى، رغم أن حدتو كانت تؤيد عبدالناصر بعكس المنظمات الأخرى، ولعل هذا هو السبب فالأمن أراد قطع سبل التفاهم بين الطرفين.

وكانت أمامنا عدة مشاكل، أجهزة الطباعة سقطت فى يد الأمن، وكذلك المسئولون عنها، وكثير من القطاعات فقدنا الاتصال بها.

وفيما نجهد أنفسنا فى النقاش اتفقنا أن نبدأ بالقاهرة وبأجهزة الطباعة، واتفقنا على فكرة غريبة وهى أن نجمع الرفاق فى ثلاث مجموعات مستقلة تماما عن بعضها البعض، وأن نقتسم الاتصال بقياداتها، وداخ محمد السبع دوخات حتى تعرف على ملامح من تبقى من كوادر. وأخيرا تأسست قيادات الثلاث مجموعات عبر نشاط مكثف وشديد الكفاءة. ولأننى لا أعرف أحدا كان محمد هو المنظم والمنسق واللاعب الأساسى، قيادة

المجموعات الثلاث كانت: الأولى قدرى شعراوى – ليلى الشال – مارى بابا دوبلو. والثانية طه دياب – سعاد زهير – مجدى نصيف – على حنيطر والثالثة: أحمد عزالدين – محمد حسن جاد(برق) – عبدالله إسماعيل، وكانت هناك مجموعة طلابية كبيرة جدا يقودها حسين عبدربه – فتحى مجاهد – سمير عبدالباقى – السيد يوسف، لكن الزعفرانى اقترح ألا نتلامس معها إلا بحرص شديد لأن الأمن يركز عليها محاذرا من مشاركتها فى مؤتمر شباب آسيا وأفريقيا الذى كان منعقدا فى جامعة القاهرة، وتجلت كفاءة التاجر الشاطر فى تصرفات محمد الزعفرانى فلديه حلول لكل شىء، سمع أن ثمة جهاز طباعة متوسط الكفاءة مخزن فى إحدى قرى الغربية فأرسل محمد حسن جاد الذى أحضره ثم أتى بمن يصلحه، ثم اختار طه دياب للتدرب عليه، ومارى بابادبلو لتكون مسئولة الاتصال بالجهاز ثم شقة صغيرة فى أطراف الجيزة، وبسرعة فائقة صدرت المطبوعات الحزبية التى تحولت على الفور إلى مشكلة حقيقية فنحن لا نستطيع أن نغير الخط السياسى الذى يدعو إلى دعم معارك عبدالناصر ضد الاستعمار والصهيونية ولكن قواعد الحزب تفجرت فى وجهنا رغم أننا أضفنا عبارات شديدة اللهجة ضد مؤامرة الأمن الذى يحاول الوقيعة بين الحزب وعبدالناصر، وجاءت رسالة من كمال عبدالحليم اضطررنا إلى طباعتها وتوزيعها فهو المسئول السياسى رغم اختفائه وعدم قدرتنا على مقابلته، ويقرأ محمد الزعفرانى الرسالة ساخطا وأنا مثله وفيها أن حزبنا يعانى من وضع يشبه ثمرة بين فكى كسارة البندق أحد أطرافها نظام وطنى لكنه يطاردنا ويسجننا، والطرف الآخر هو ضغوط القاعدة الحزبية التى تطالب بالهجوم الواضح على الديكتاتورية العسكرية وبتأييد ثورة العراق التى ناصبها عبدالناصر العداء، وازدادت القاعدة التهابا إلى درجة أن محمد الزعفرانى اقترح أن نكف عن التحليلات السياسية وأن نكتفى بالنضال العملى وأخباره، وفى ظل ذلك الارتباك كان الأمن يواصل تمشيط مواقعنا ومع تواصل النشاط وتدفق المطبوعات التى كان محمد يشرف على طباعتها وتوزيعها. وفى نفس الوقت اقتحم الزعفرانى وبجسارة مجال العمل الجماهيرى فقد رشح عددا من الرفاق لعضوية لجنة قسم الاتحاد القومى بالخليفة، وربما كانت المرة الأولى فى تاريخ الانتخابات التى تشكلت فيها مجموعات من راكبى الدراجات يرتدون زيا موحدا عبارة عن تى شيرت صممه وصنعه الزعفرانى وحمل شعارات انتخابية لزملائنا كانت حرية – اشتراكية – عدالة وانزعج الأمن وشن سلسلة حملات أخرى طالت

كثيرا من رفاقنا بالخليفة ومنهم أحمد عزالدين وعبدالله إسماعيل، ثم أمسك الأمن بالخيط الرئيسى وهو محمد الزعفرانى فقبضوا عليه ليعتقل فى أسوأ سجون الناصرية وأشدها وحشية وهو ليمان أبوزعبل حيث صمد مع الصامدين الشجعان ثم إلى الواحات، حتى يفرج عنه مع الجميع ليبدأ رحلته من جديد ويبنى بكفاءة نادرة صرحا من مصانع التريكو ويظل دوما كما كان منذ عرفته على ولاء للمبدأ والالتزام بتقديم مساعدات مالية لحزب التجمع، حتى يرحل.